علاقة الشّعر الجاهلي بالدّين بين القطيعة والتفاعل

أ. نجاة بوقزولة

ينطلق البحث في العلاقة بين الشّعر والدّين من وجود ألفاظ دينية اقتحمت نسيج النصّ الشعري القديم ، ومازجت بناءه الفنّي ،فإذا كان الشعر العربي في الجاهلية "ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به يأخذون ،وإليه يصيرون "فقد أمكن الشّاعر العربي القديم أن تحمل نصوصه مضامين دينية ،وأن يعبّر بالكلمة عن طقوس تمارسها القبيلة،فتنوعت الألفاظ الدّينية الواردة في أشعار الجاهليين بتنوّع الحالة الدّينية بطقوسها وممارساتها في عصر ماقبل الإسلام ،غير أنّ بعض الدّراسات تشير إلى أنّ أعراب البوادي كانوا أقلّ حماسة وجدّية لعبادة الأوثان والأصنام على الرّغم من انتشارها وشيوعها في مكّة ،فكثيرا ماكان يثور الأعرابي على صنمه حين لا يلبّي هذا المعبود حاجته. يقودنا هذا الطّرح للتّساؤل حول طبيعة العلاقة بين الشعر الجاهلي وتلك الألفاظ الدينية التي تخللت بناء النصّ القديم:

- ماهي أهمّ الدّيانات التي تأثر بها الشعراء وتفاعلوا معها؟ وهل أعطت تلك الألفاظ صورة واضحة عن المعتقدات التي شاعت في شبه الجزيرة العربية قبل مجيئ الإسلام ؟ لماذا لم يفرد الشعراء قصيدة للتّغنّي بالأوثان على الرّغم من عبادة العرب لها ؟
- بماذا فسّر الباحثون وجود ألفاظ دينية إسلامية داخل نسيج القصيدة الجاهلية ؟
- ماهي الأسباب التي حملت بعض الأعراب للثّورة على الأصنام، وكيف تجلّت تلك القطيعة معها ؟

١ / تفاعل الشّعر القديم مع الدّين:

إنّ الحديث عن علاقة الشعر العربي بالدّين يقودنا إلى البحث في بداياته الأولى ،فقد ورد في كتاب ابن الكلبي شطرات رجز تتجه إليها أنظار الباحثين رائين فيها بداية أولى للقصيدة قبل أن تبلغ درجة من الكمال والنضج الفنيين، ترتبط تلك الشطرات بطقوس دينية كانت تقوم بها قبيلة عك ،ففيما يرويه "أن هذه القبيلة إذا ماخرجوا حجاجا قدموا أمامهم غلامين أسودين يصيحان نحن غرابا عك" فتقول عك بعدها ملبية:« عك إليك عانية... عبادك اليمانية...كيما تحج ثانية»١ وقد لاحظ الباحث أنّه توجد في هذه الشعيرة الطقوسية أثار شعرية في تلبية عك.فبداية الشّعر العربي ارتبطت إذا بممارسات دينية ما يوحي بوجود ارتباط قديم بين الشعر والدّين،ويعلق علي البطل على ذلك بقوله: "وأيّا ما تكون هذه البداية فقد رأينا أن للعرب حياتهم الرّوحية وأساطيرهم وحضارتهم قبل الإسلام، ومن الطّبيعي أن يكون للشّعر دور كبير في طقوس عباداتهم، وإذا كنا قد فقدنا هذا الشّعر فليس معناه أنّه لم يوجد على الإطلاق، وإنّما علينا ان نتلمس أثاره وتقاليده الفنية التي عاشت في شعر المراحل التي وصلتنا أثارها.٢ وتشير الدّراسات أيضا إلى أنّ أقدم نظرية حاولت تفسير مصدر الشعر العربي القديم ربطته بمصادر غيبية ، ،إذ زعمت أنّ لكل شاعر جنّيا يوحي إليه بالشّعر، ولعلّ هذا مما تلمّسه البعض من قول امرئ القيس:

تخبّرني الجن أشعارها

فما شئت من أشعارها اصطفيت ٣

ولشدّة تقديس الشعر وعلوّ مكانته في نفوسهم ساد اعتقاد بأنّه يأتي من السّماء وذلك حتى يزداد رفعا ،ولا أدلّ على ذلك من قول حسّان بن ثابت قبل الإسلام:وقافية مثل السّنان رزئتها تناولت من جوّ السّماء نزولها ٤

وقد كان العرب يطلقون على الشّاعر لقب العالم والحكيم ، فقد روى الأصمعي عن أبي عمروبن العلاء قوله:«وكانت الشعراء عند العرب في الجاهلية بمنزلة الأنبياء في الأمم ،حتى خالطهم أهل الحضر فتكسبوا فنزلوا عن مرتبهم.» ٥

كما أنّ الخليفة عمر بن الخطاب لاحقا سأل كعب الأحبار "عما إذا وجد ذكرا للشعراء في التوراة"؟ ،فأجابه كعب:«أجد في التوراة قوما من ولد إسماعيل، أناجيلهم في صدورهم ينطقون بالكلمة ويضربون الأمثال، لا نعلمهم إلا العرب.» ٦

وإذا كان الشعر العربي:«في الجاهلية

ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به يأخذون وإليه يصيرون» ٧،فقد تفاعل الشاعر العربي القديم مع الدّيانات الشائعة في شبه الجزيرة العربية - وقد تنوعت الألفاظ الدينية الواردة في أشعار الجاهليين بتنوع الحالة الدينية بطقوسها وممارستها في عصر ما قبل الإسلام.

أ-الشعر الجاهلي وعلاقته بالوثنية :

تعدّ الوثنية أكثر الدّيانات شيوعا في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام بعد تحوّل العرب عن التوحيد.وقد أورد ابن الكلبي بعض الأخبار التي تصف الحالة الدّينية في شبه الجزيرة العربية قبل مجيئ الإسلام ،ومجمل ماجاء فيه أنّ العرب كلهم كانوا على دين إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، وأول من غير العرب إلى عبادة الأصنام، وأدخلها عليهم؛ عمروبن لحي الخزاعي، إذ بعد توليه حجابة البيت ونفيه جرهما، مرض مرضا شديدا فقيل له أن بالبلقاء من الشام حمةً إن أتيتها برأت، فأتاها فاستحم بها فبرأ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام ، فقال: ما هذه؟ فقالوا: نستسقي بها المطر ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة فقيل أنه أول من غّير دين العرب ونصب الأوثان . وقد تردد ذكر لبعض أسماء الأصنام التي عبدوها في أشعارهم.ما يعزز هذا الطّرح قول الشاعر ٨:

حيّاك ودّ فإنّا لا يحلّ لنا
لهوالنساء وإذ الدّين قد عزما

كما وجدناهم يقسمون بمناة وإساف ونائلة× من ذلك قول الشاعر

إنّي حلفت يمين صدق تره
بمناه عند محل آل الخزرج

ويذكر أبوطالب إساف ونائل قائلا:

أحضرت عند البيت رهطي ومعشري
وأمسكت من أثوابه بالفصائل
وحيث ينيخ الأشعرون ركابهم
بمفضي السيول من إساف ونائل ٩

ومناة هذه التي ذكرها الله عز وجل في محكم تنزيله:«ومناةالثالثة الأخرى». {النّجم الآية ٢٠}ومناة وإساف ونائلة وودّ هي أصنام شهيرة كانت تعبدها العرب أيام الجاهلية والتي كانت تسمّ بأسماء سموها هم وآباؤهم و قد جاء ذكر بعضها في القرآن الكريم ١٠وتلك الأسماء الوثنية في الأبيات المذكورة لايعيّن لنا هذه الدّيانة أويعرّفنا بها بقدر ماكانت تستدعى في سياق القسم أو تعيّن الفضاء والموضع الذي نصبت فيه لضرورة استدعاها السّنن الفنّي المتّبع آنذاك كما في أبيات أبي طالب.

كما وجدت في أشعارهم أخرى أقل شهرة كالصّنم الأقيصر من ذلك:

حلفت بأنصاب الأقيصر جاهدا
وما سحقت فيه المقاديم والقمل ١١

ومن الملاحظ أن ذكر هذه الأصنام والأوثان جاء في معرض القسم أوماشاكله ، ولم تفرد قصيدة أوأبيات تتحدث عن شدّة إيمان الشاعر بصنمه الذي يعبده، ويرد الباحث كامل فرحان السبب في ذلك أن شعر هذه المرحلة (قبل الإسلام)مع أنّه أمد الدارسين بفيض من معارف قيّمة عن الحياة القريبة من الإسلام ،إلاّأنّه لم يقدم شيئا مهما عن الحياة الدّينية عند العرب قبل الإسلام ، وفي لهجة قريبة من تلك الّتي ألفناها عند طه حسين ،نجد الباحث ينساق وراء مزاعم بعض المستشرقين دون مناقشة الفكرة بشيء من التروي ،وأن يزنها بميزان العقل والمنطق، فنراه يقع في الخلط والاضطراب ،حين يعلّق على تلك الأشعار التي تخللت الوثنية نسيجها قائلا:«لقد تجلّت الحالة الدّينية بطقوسها،وممارساتها لعصر ما قبل الإسلام في الشعر، ولاسيما الوثنية منها ،فدخلت نسيجه وأخذت مكانها ضمن أبياته.» ١٢ويلاحظ الباحث كامل فرحان،من أن الشعر الذي أمدّ الدارسين بفيض من معارف قيّمة عن الحياة القريبة من الإسلام ،لم يقدّم شيئا مهما عن الحياة الدينية عند العرب قبل الإسلام ، ويردّ السبب في ذلك «إلى أنه أراد مجاراة من دخل في الإسلام، في التنصّل من أيّام الجاهلية ،ومن التبرّؤ منها ،وعن غض النّظر عن ذكر أصنام حرمها الإسلام. »ثم يستطرد في ذكر سبب آخر قائلا:

ولعل السّبب عائد إلى أن من عادة العرب قبل الإسلام عدم الإسراف والإسفاف في ذكر أسماء الآلهة، خاصة في أدبهم، وذلك على سبيل التأدّب اتجاه الأرباب، فاستعاضوا عن الصّنم بلفظة الله، التي لم تكن إلها معينا، وإنّما تعني ما تعنيه كلمة رب وإله» ١٣

نعم لقد أصاب الباحث، في أنه تندر وجود قصيدة تتحدث عن الوثنية لذاتها لكن نستخلص أسبابا عدة عن ذلك التجسيد العرضي للوثنية في ثنايا شعر ما قبل الإسلام، إذ لم تفرد أبياتا للتغني بصنم ما، أووثن معبود من قبل الجاهلين على الرغم من انتشارها في شبه الجزيرة العربية انتشارا لا ينكره أحد. من تلك الأسباب :

- أن الوثنية لم تكن عبادة متمكنة من قلوب أولئك الشعراء ،فيدفع بهم الأمر إلى تمثلها في أشعارهم ،طالما تغنوا بأشياء ملكت عليهم وجدانهم ،وأحاسيسهم ،كالمرأة ،والناقة، وحتى الأطلال، والشعر كما علمنا هوفي أبسط تعريفاته «شيء يختلج في صدر الشاعرفينطق به لسانه ١٤». فإن كان هذا هوالشعر، وإن لم تنفذ هذه الأصنام، والأوثان إلى قلوب الشّعراء ،ولم تخالج ملكاتهم الشّعرية ،ولم تستثر العاطفة الدّينية الكامنة في نفوسهم، فلم تشبع حاجاتهم الرّوحية، فأنّى لهم بقصائد تصف ذلك الشعور العميق بالإيمان ولذة العبادة فتدفعهم إلى التغني بمعبودهم، أوالتضرع إليه في أشعارهم ،مثلما سنلمس ذلك لاحقا مع الشعراء المتحنّفين أوشعراء النصرانية.
- ثم إن إيمانهم بهذه الأصنام كان مهزوزا ،وهذا ما تثبته الأخبار والرّوايات، فهذا ابن الكلبي يقول:«واستهترت العرب في عبادة الأصنام، فمنهم من اتخذ صنما، ومن لم يقدر عليه... نصب حجرا أمام الحرم، أوأمام غيره مما استحسن ثمّ طاف به كطوافه بالبيت. ١٥» .وضمن هذا المنظور نفهم سرّ عدم وجود قصائد أفردت للحديث عن الأصنام.
- أما عن تعلله باستعاضة العرب عن ذكر أسماء أصنامهم بلفظةٌ الله التي لم تكن لفظ الجلالة –حسب الباحث-بل تعني ما تعنيه لفظة رب أوإله بصفة العموم، فإن هذا الأمر مردود أيضا ويصعب الاقتناع به، فهذا الأمر تنفيه كثرة الأشعار التي جاء فيها ذكر أصنام الجاهلية بأسمائها في معرض القسم بها، فلا يكاد يخلوشعر الجاهليين من ذكرٍ لأسماء هذه الأصنام ،وإن كان ذكرها جاء عرضيا كما ذكرنا آنفا ،فالعرب كانوا يعتقدون بوجود الله الواحد الأحد، وأمّا تلك الأصنام فيتعبدونها لتقربهم من الله زلفى ،ولعل هذا الاعتقاد بقي ساريا من آثار الحنيفية، يقول المقدسي: "يستحيل وجود اسم إلاّ لمسمّى فمن ذلك قمل العرب له اللّه مفردا من غير أن يشاركوه في هذا الإسم بأحد من معبوداتهم لأنّه خاصّ لهم عندهم وكانوا يطلقونه على غيره للتّنكير "١٦ . «ولوكان الإسلام – كما يذهب إلى ذلك جواد علي- قد تعمد طمس الجاهلية والقضاء على معالمها لتحرّج القرآن ،وتحّرج المسلمون من الإشارة إليها ومن إحياء أسمائها ،وبعثها في ذاكرة الناشئين في الإسلام.» ١٧ من ثم فرأي الباحث حين ذهب إلى أن المسلمين شذبوا ذلك الشعر، وحذفوا أسماء الأصنام ،وأحلوا محلها اسم الله، هيّئ له أن ما ورد فيه اسم الله إنّما يراد به اسم صنم ،فإنّ هذا الرأي مجانب للصّواب ، فهناك شعر منسوب إلى الجاهليين فيه اعتقاد صريح بوجود الله ،من ذلك "قول الشاعر الجاهلي أوس بن حجر:

وباللاّت والعزّى ومن دان دينها
وبالله إن الله منهن أكبر

من الملاحظ أنّ الشّاعر على الرّغم من قسمه باللاّت والعزّى كشرط لقبول قسمه عند من يتعبّدونها ،فإنّه يقسم بالله ويقرّ بعظمة الحق وقدرته المتعالية على هذه الأصنام ،وما جعله للّه تعالى متأخّرا في قسمه إلّا ليحمل المتلقي على تصديق خطابه الذي يستمدّ مشروعيته وصدقة من قداسة وجلال المقسم به فقارعهم في قسمهم باللات والعزّى أن زاد عليه ما هوأعلى وأجلّ وهوما يوحي بمعرفة الشاعر بوجود الله وإن غابت عنه الطريقة المثلى لعبادته.

إنّ نظرة الشاعر العربي في علاقته بالله عز وجل ومعرفته به تختلف جذ ريا عن نظرته للصنم كما لاحظنا آنفا ،فالصنم استخدم في أشعارهم لمجرد القسم ،أما الله كما جاء في بعض أشعار الشعراء الجاهليين المتحنّفين ؛عالم بكل شيء ،عارف بالخفايا والأسرار ما ظهر منها وما بطن –وهذا ماسنجلّيه لاحقا-.

والدليل أيضا على أنّهم إنّما أرادوا "الله" "هوذكرهم "الرّحمان" في أشعارهم " ويذهب المقدسي إلى أنّهم لم يكونوا يجيزونه لغير اللّه من ذلك قول الشّاعر : ألا ضربت تلك الفتاة هجينها ألا قطع الرّحمان منها يمينها ١٨

من ثم يمكننا القول أن بعض الجاهليين ،قد آمنوا بوجود الله الواحد الأحد ،فلعل وجود لفظ الجلالة "الله" في أشعارهم، إنّما هومن بقايا عقيدة التوحيد، التي سبق وجودها عبادة الأصنام عند العرب في شبه الجزيرة.

الشاعر القديم والقطيعة مع الوثنية :

إنّ عبادة الأصنام على الرّغم من انتشارها في مكة ورسوخها فيها، "فإن أعراب البوادي كانوا أقل حماسة ،وجدية لعبادة الأوثان" ١٩، فكثيرا ما كان يثور الأعرابي على صنمه حينما لا يلبّي هذا

المعبود حاجته، وفيما يروى أن رجلا من بني خلّكان،جاء الى سعد- (صخرة طويلة بأرضهم يعبدونها) بإبل معه يلتمس البركة، فلما رأت ما عليه من الدم المراق× نفرت منه، وتفرقت في كل وجه، فأخذ حجرا ،ورمى به سعدا، وقال: لا بارك الله فيك، نفّرت عليّ إبلي ،ثم خرج في طلبها حتى جمعها وانصرف، وهويردد٢٠:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا

فشتتنا سعد فلا نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة بتنوقة

من الأرض لا يُدعى لغيٍّ ولا رشد

وكذلك ما يروى عن قبيلة بني حنيفة ،إذ اتخذت في الجاهلية معبودا من تمر ، فعبدوه دهرا طويلا ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه، فقال رجل من بني تميم:

أكلت ربّها حنيفة من جوع

قديم لها ومن إعواز ٢١

وهذا عمر بن نفيل يذكر الصنم هبلا، فنراه يعلن القطيعة مع عبادة الأصنام كلها، فقد تبرك بها صغيرا حتى إذا ما اشتد عوده، وتقدم به الحسّ الديني، ونمت بداخله الفطرة السليمة، علم أن لا سلطان لها عليه، ولا طائل من عبادتها، فقرر تركها:

ولا هبلا أزور وكان ربّا

لنا في الدّهر إذ حلمي صغير ٢٢.

وكان في الجاهلية صنم يقال له سعير ،وخرج جعفر بن أبي خالس الكلبي على ناقته، فمرت به وقد عقرت عنزة عنده ،فنفرت ناقته منه فأنشأ يقول:

نفرت قلوصي من عنائز صرّعت

حول السّعير تزوره أبنا تقدُم

وجموع يذكر مهطعين جنابه

ما إن يشير إليهم بتكلم ٢٣

إنّ جعفر ناقم على"السّعير" ،وعلى عبّاده ،وزوّاره لنفور ناقته.فتلاحظ أن إكبار العربي لناقته وشأنها ،أهم عنده من صنم عقرت حوله قرابين لا ترجى من ورائه فائدة.

ثم إن الأصنام لطالما خيّبت آمال عابديها فما كان منهم إلا التجاسر والتأنيب لها والثورة عليها، إذ يروى أن امرأ القيس رمى صنمه بسهم وأنّبه لمّا جاء الجواب بخلاف ما كان يرغب فيه ويشتهيه ٢٤ ،فقد أقبل يريد الغارة على بنى أسد ،فمرّ بذي "الخلصه" (وكان صنما تعظمه جميع العرب ،وكانت له ثلاثة أقداح: الآمر والناهي والمتربص).فاستقسم عنده ثلاث مرات، فخرج الناهي: فكسر القداح، وضرب بها وجه الصنم، وقال غضضت بأبي أبيك، لوكان أبوك قتل ما عوقتني، ثم غزا بني أسد فظفر بهم ،فلم يستقسم عنده بشيء حتى جاء الله بالإسلام ،فكان امرؤ القيس أول من أخفره ٢٥.

ونلاحظ من خلال هذه الرواية وغيرها أن الجاهليين، وخاصة الشعراء منهم ما كانوا على صلة وطيدة، وحميمة بأصنامهم، وثورة امرئ القيس على هذا الصنم، ومخالفة نتيجة الاستقسام وكسر القداح، ثم ختام الرواية بالظفر بالعدو، بعد أن منعه الصنم –على سبيل المجاز- كل هذا أدّى إلى زعزعة اعتقاد الجاهليين بصنمهم المبجل، الذي طالما استقسموا عنده، فعزفوا عن ذلك وفي هذا دلالة أخرى على عدم تمكن الوثنية كعبادةمن قلوبهم كل التمكّن وهذا ما يفسر غياب قصائد لهم تحكي عن ديانتهم هذه، أوتتغنى بأصنامهم وكان كل شيء من حولهم من امرأة ،وخمر ،وناقة وصحراء ، ، أهم من الأصنام التي كثيرا ما خيّبت أمالهم.

ب- الشاعر وعلاقته بالنصرانية والحنيفية: لقد كانت النصرانية شائعة في بلاد العرب، ومن آثار ها في الشعر العربي القديم ،ما نتلمسه في شعر عدي العبادي وهوشاعر نصراني حضري عاش في عاصمة المناذرة (الحيرة) بالعراق ٢٦ فيقول:

أن كيف أبدى إله الخلق نعمته

فينا وعَرفنـــــا بآياته الأُولاَ

كانت رياحا وماء ذا عُرانية

وظلمة لم تدع فرقا ولا خللا

فأمر الظلمة السوداء فانكشفت

وعزل الماء عما كان قد شغلا

وبسط الأرض بسطا ثم قدرها

تحت السماء سواء مثل ما فعلا

قضى ستة أيّام خلائقـــــــه

وكان آخرها أن صوّر الرّجـــلا

م"لا يحتاج القارئ إلى كثير عناء ليكشف ذلك الشّبه الكبير بين ما جاء في الأبيات وما ورد في القرآن الكريم عن قصة بداية الخلق قال تعالى:«أولم ير الذين كفروا أن السّموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كلّ شيء حي أفلا يؤمنون» [الأنبياء /٣٠] وهوما يبعث الدّهشة عند المتلقّي ويحمله على التّساؤل كيف عرف الشاعر هذه الحقائق الدّينية ، يجيبنا نايف معروف عن ذلك قائلا:"فإذا صحّت نسبة هذه الأبيات لهذا الشاعر ؛ فإنّما تدلّ على أنّ بعض العقائد التي نزلت على عيسى عليه السلام ظلّت على صفائها حتّى ذلك الحين" ٢٧،

لكن شوقي ضيف يختلف اختلافا بيّنا مع نايف معروف، فقد ذهب إلى أن

نصارى العرب –ومنهم عدي الأنصاري –إنما عرفوا ظاهرا من دينهم ،وقلما عرفوا حدوده ،فهم مسيحيون ووثنيون في الوقت نفسه، ففي أشعارهم لم تظهر فكرة التّثليث المعروفة فقال:« ينبغي أن لا نبالغ في تصور من تنصروا من العرب قبل الإسلام، ونظنّ أنهم قاموا بتعاليم النّصرانية قياما دقيقا، فقد عرفوا الكنائس، والبيع، والرّهبان ،والأساقفة، والصوامع ، ولكنّهم ظلوا لا يتعمّقون في هذا الدين الجديد ،وظلوا يخلطونه بغير قليل من وثنيتهم.» ٢٨ ثم يستدل على ذلك، بقول عدي بن زيد العبادي:

يسعى الأعداء لا يألون شّرا

عليّ وربّ مكّة والصليب ٢٩

لكنّه يستدرك قائلا في موضع آخر:" ويكثر في شعر الأعشى ،وأمية بن أبي الصلت، وعدي بن زيد، القصص عن الأنبياء، وسيرهم ؛قصصا نظن ظنا أنه موضوع،وهوإن قبل من عدي النصراني ،فإنه لا يقبل من الأعشى وكان وثنيا." ٣٠ في حين أن نايف معروف يتخذ ما ورد في أبيات عدي العبادي من أثر ديني نصراني ،مسوغا لقبول بعض الأبيات المنسوبة للأعشى، وقد أنكرها شوقي ضيف وغيره، لما تحمله من معاني دينية نصرانية. ٣١من ذلك قول الأعشى:

استأثر الله بالوفاء وبال

عدل وولىّ الملامة الرجلا

والأرض حمالة لما حمل ال

لّه وما إن تردّ ما فعلا ٣٢

وهناك من يجعل الأعشى قدريا، وهذا المذهب تلقاه من قبل نصارى الحيرة، فقد ذكر الأصفهاني في خبر ينتهي إلى سماك بن حرب ،نقلا عن راوية الأعشى (يحي بن متى النصراني العبادي) ،أن الأعشى كان قدريا حين قال:

من هداه سبل الخير اهتدى

ناعم البال ومن شاء أضل

وحين سئل من أين أخذ الأعشى مذهبه؟ قال:من قبل العباديين نصارى الحيرة ،حين كان يأتيهم يشتري منهم الخمر فلقنوه ذلك ٣٣.)وقد ذكر الأعشى في شعره محراب الكنيسة قائلا: كدمية صور محرابها بمذهب ذي مرمر مائر

ويقول بروكلمان «من+ الجائز أن الأعشى كان نصرانيا حقّا، وكان نصرانيا أيضا رب نعمته "هوذة بن علي الحنفي" أمير اليمامة الذي كان الأعشى ينادمه، وكان يزور كثيرا أيضا أسقف نجران، ومن ثم عرف الأعشى حمامة نوح، وأخبار سليمان، ولكن الأعشى لم يتعمق في النصرانية. ٣٤» ينفي بروكلمان إذا عن الأعشى تعّمقه في النصرانية، وإن كان تحدث في شعره عن الله، والبعث والحساب،فإن هذا الأمر بالنسبة لبروكلمان لا يعدوأن يكون اتباعا للسّنن الفنّي لشعر الجاهلية.

لقد تنوعت إذا المصادر الدينية التي كان يتفاعل معها الشاعر في تلك المرحلة ،حتى ولوكان ذلك التفاعل لا يتجاوز الناحية المعجمية، ولعل هذا ماعبر عنه بروكلمان بقوله: "إن التعرف على دين من الأديان، ليس معناه الاعتراف بذلك الدين، واعتناقه من قبل من يعرفه، ومن ثم كان خطأ تامّا ما زعمه لويس شيخوحيث ادعى أن جميع شعراء الجاهلية تقريبا من شعراء النصرانية. " ٣٥ وفي قراءة سريعة لشعر الشعراء الحنفاء ،لا يحتاج القارئ إلى كثير تأمل ونظر حتى يلمح آثار هذه العقيدة تخترق النسيج العام لقصائدهم فهذا زيد بن نفيل العدوي يفارق دين قومه" ٣٦وأربابهم، ويعتزل عبادة الأوثان ويلتزم عبادة الله الواحد الأحد يصدح بذلك في أشعاره فهوالقائل ٣٧

أربًا واحدا أم ألف ربّ

أدين إذا تقسّمت الأمور

عزلت اللاّت والعزّى جميعا

كذلك يفعل الجلد الصّبور

فلا العزّى أدين ولا ابنتيها

ولا صنمي بني عمروأزور

ولا هبلا أدين وكان ربًا

لنا في الدّهر إذ حلمي صغير

يسهل على القارئ الإلمام بدلالات النص المباشرة ، يعلن الشاعر توحيده لله عزوجل ويسخر من كثرة الأرباب / الأصنام التي يعبدها قومه في الجاهلية ويحدث القطيعة مع هذه الأوثان ،فجاء نصه محمّلا بمعاني الوعيد والتهديد بعذاب الله لمن فجر والوعد لمن عبد الله الواحد .لكن مايثير الغرابة هووجود مثل هكذا طرح في مرحلة انقطع فيها الوحي ردحا من الزمن ،ولكن ما يبدّد هذه الغرابة هوهذا النصّ لزيد نفسه يعتب فيه على قومه على عبادة غير الله،ويحدّث عن اتباعه لملّة سيدنا إبراهيم يقول: "يا معشر قريش، أيرسل الله قطر الماء، وينبت بقل الأرض، ويخلق السائمة فترعى فيه، وتذبحونها لغيره، والله ما أعلم على ظهر الأرض أحدا على دين إبراهيم غيري ". وكثيرة هي أشعار زيد التي نلمس من خلالها إيمانه بوحدانية الله وعظمته وقدرته المطلقة فهوالقائل:

وأنت الذي من فضل ورحمة

بعثت إلى موسى مناديا

فقلت له فاذهب وهارون فادعوا

إلى الله فرعون الذي كان طاغيا
وقولا له أنت سمكت هذه
بلا عمد حتى استقرت كما هي؟ ٣٨

بعد هذه النظرات الثواقب في أسرار هذا الكون وبدائعه ،التي نستكشف من خلالها آثار الحنيفية في بعض الشعر العربي القديم، وكيف تعانق الدّيني والشعري في حوار ينبئ عن عقيدة زيد الذي اختار عبادة الرحمن على عبادة الأوثان، وخضوعه لله الخالق المدبر، الذي لا معبود سواه .

كما نتلمس آثار الحنيفية في أشعار ورقة بن نوفل ،وهوأحد النفر الذين تعاهدوا مع زيد ،وعبد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث على ترك عبادة الأوثان، وأكل الميتة وعبادة الرحمان. وقد اختلف النقاد والباحثون في ديانة ورقة بن نوفل بين حنيفي ونصراني، فقد ذكر صاحب الأغاني أن ورقة كان قد تنصر في الجاهلية، ٣٩إلا أن نايف معروف يذهب إلى تفنيد هذا الرأي معتللا في ذلك بأبيات رثى فيها ورقة زيدا ،كان يبدوفيها حنيفيا على دين إبراهيم الخليل عليه السلام ٤٠،وهي قوله:

رشدت وأنعمت بن عمرووإنّما
تجنّبت تنّورا من النّار حاميا
وإدراكك الدّين الذي قد طلبته
ولم تك عن توحيد ربّك ساهيا
فأصبحت في دار كريم مقامها
تعلّل فيها بالكرامة لاهيا
تلاقي خليل الله فيها ولم تكن
من النّاس جبّارا إلى النّار هاويا ٤١

إنّ الأبيات تدلّ دلالة واضحة على صفاء عقيدة عمروزيد من توحيد لله عز وجل وعبادته ، اتباعا لدين الخليل ، وعزوفا عن الأوثان.وسواء أكان ورقة حنيفيا أونصرانيا فالمهم أننا نجد في تلك الأبيات الشّعرية التي رواها عنه الرواة وجها من أوجه التقاء الديني والشعري، في مرحلة ما قبل الإسلام، فنزداد يقينا أن تفاعل الشعري بالديني قد رافق مسيرة الشعر العربي منذ ظهوره، حتى ولواتخذها الباحثون دليلا على انتشار الحنيفية التي نلمس آثارها أيضا في شعر لبيد قبل إسلامه، فقد تكشفت من خلال أبيات رثى فيها أخاه أربد حين قال: ٤٢

إن تقوى ربنا خير نفل
وبإذن الله ريثي وعجل
أحمد الله فلا ند له
بيديه الخير ما شاء فعل
من هداه سبل الخير اهتدى
ناعم البال ومن شاء أضل

أما أميه بن أبي الصلت، فقد روى صاحب الأغاني عن الأصمعي قوله:«ذهب أميه في شعره بعامة ذكر الآخرة». ولعل هذه الرواية تؤكد أن شعر هذا الرجل كان شعرا دينيا بأتم معنى الكلمة، إلا أنه لم يسلم، فلما بعث النبي وكان يطمع في النبوة ؛إذ جانبتة غلب الكفر على قلبه، فأنزل فيه الله تعالى قوله: {واتل عليهم نبأ الذي أتيناه آياتنا فانسلخ منها } [الأعراف/ ١٧] ولما عوتب على عدم إيمانه بالإسلام، قال:ي«ئست من النبوة وأصابني ما رأيت، إذ فاتني ما كنت أطمع فيه» ٤٣.

فأمية امتنع عن الإسلام لأنه كان يطمع أن يكون النّبي المرتقب ، إلا أن الناظر في شعره يلحظ أن لاتكاد تخلوقصيدة من قصائده من ذكر التوحيد، والتذكير بقيام السّاعة ويوم الحساب، ومن تعظيم الله وقدرته المتجلية في مخلوقاته

قال :

مليك على عرش السماء مهيمن
لعزته تعنوالوجوه وتسجد ٤٤

وها هو يبدي تضرّعه وخوفه من الله عز وجل أملا أن يسكنه جنة الخلد ذلك في قوله:

ربّ لا تحرمن جنة الخلد
وكن ربّ بي رؤوفا حفيا ٤٥

كما وردت بعض من مصطلحات النصرانية والحنفية في أشعار العرب الوثنين فامرئ القيس يقول:

يضئ سناه أومصابيح راهب
أمال السليط بالذّبال المفتل ٤٦

فطالما تحدث الشعراء في تشبيهاتهم عن النواقيس وقرعها في أواخر الليل وفي قول المرقش الأكبر ٤٧:

وتسمع تزقاء من البوم حولنا
كما ضربت بعد الهدوّ النواقيس

ويذهب أهل الأخبار أن العرب كانوا على دين واحد هودين إبراهيم ؛ودين التوحيد؛ ودين الحنيفية، وكان العرب مثل غيرهم قد ضلوا الطريق، وعموا عن الحق، وغووا بعبادتهم الأصنام في جزيرة العرب،" ٤٨وذكر المسعودي أن عمروبن لحي،" حين خرج إلى الشام ورأى قوما يعبدون الأصنام، فأعطوه منها صنما فنصبه على الكعبة، وأكثر من الأصنام وغلب على العرب عبادتها، انمحت الحنيفية منهم إلا لماحا صح العقلاء من ذلك ،حتى قال سحنة بن خلف الجرهمي ٤٩:

ياعمروإنّك قد أحدثت آلهة
شتىّ بمكهّ حول البيت أنصابا
وكان للبيت ربّ واحد أبدا
فجعلت له في البيت أربابا

لتعرفن بأدّ الله في مهل
سيصطفي دونكم للبيت حجاجا

. الشّاعر الجاهلي والإسلام:

لقد روى الرواة بعض أشعار الجاهليين التي تبشر بمجيء الدين الإسلامي وبعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، اتخذها الباحثون كدلالة على إرهاصات أولى سبقت البعثة، ومهدت لنشر الرسالة، تهيئ العرب وجدانيا لقبول الدعوة وحملها، فهذه الأشعار جاءت محملة بمعاني ودلالات تنبئ ببزوغ فجر النبوة، ولوصحت نسبة تلك الأشعار لقائليها فإنّها تعد بحق أكبر دليل على علائق ووشائج بين الدين والشعر العربي القديم ،من ذلك مثلا ما رواه المقدسي من شعر نسبه لبعض ملوك اليمن بشروا فيه بظهور رسول من خلال ما تسرب إليهم من أخبار أهل الكتاب، وكان من هؤلاء "الرائش" (الذي قيل أنه أول من غزا ملوك اليمن ،وأصاب الغنائم فسمي بذلك الرائش لأنه راش الناس وكساهم). إذ يروى أنه ذكرالنبي محمد صلى الله عليه وسلم ملوكا يكونون قبله حين قال:

ويملك بعدهم رجل عظيم
نبيّ لا يرخّص في الحرام
يسمى أحمدا بالبيت إني
أعمّر بعد مبعثه بعام ٥٠

كما ساق أبياتا أيضا لتبع الأوسط (اسعد أبوكرب) إذا قال:

شهدت على أحمد أنه
رسول من الله باري النسم
فلومدّ عمري إلى عمره
لكنت وزيرا له وابن عمّ

ويذكر المقدسي بأنه هوالذي قتل يهود يثرب وأراد أن يخربها فأخبر أنها مهاجر نبي، فامن به وتركها كما يزعمون ٥١

الملاحظ أن هؤلاء الشعراء على وثنيتهم ،فإنّهم تنبّأوا في أشعارهم بمجيء نبيّ ، ولعل هذا عائد إلى ما سمعوه من النصارى واليهود ،فداخلت هذه التنبّؤات مخزونهم الثقافي من ثم انعكست على أشعارهم دون الإيمان والاعتقاد بها. ولم يقتصر أمر التدين والإيمان بالله على شعراء اليهود والنصارى والحنفاء، فقد وجد لفظ الله عز وجل وتوحيده عند الشعراء العرب في الجاهلية، وهذا دلالة على الإيمان بوجوده وبقدرته المطلقة في تدبير شؤون الكون. من ذلك ما ألفيناه عند زهير بن أبي سلمى القائل:

بدا لي أن الله حقّ فزادني
إلى الحقّ تقوى الله ما قد بداليا ٥٢

تظهر الأبيات بجلاء الإيمان بوجود الله وقدرته المطلقة والتوكّل عليه والتّقوى عند هؤلاء الشعراء المهمّ أنّنا نجد في شعر هؤلاء الشّعراء إيمانا بالبعث وبيوم الحساب وإقرارا بقدرة الله المطلقةوبعلمه الواسع وهذه المعاني هي ركيزة الإيمان في الدّين الإسلامي والسؤال كيف وجدت هذه الامور في الشعر الجاهلي ؟

"ويزعم بعض المستشرقين أن الروّاة الإسلاميين هم الذين وضعوا لفظ الجلالة في شعر الجاهليين بدلا من كلمة اللات التي تتفق معها في الوزن". ٥٣

لا يعنينا هنا نصرانية الشعراء أوحنيفيتهم، ولا حتى وثنيتهم فهذا الأمر رهين تطور الأبحاث والمخطوطات ونتائج الحفريات والأنثربولوجيا، أما الذي يعنينا هنا فهوهذا التفاعل بين الشعري والديني في مرحلة ما قبل الإسلام، لا لمعرفة ديانة الشعراء بقدر ما يعنينا رصد نوع العلاقة التي كانت تجمع بينهما، ومن الجلي أن الشعر في تلك المرحلة قد استفاد من الدين، حين أمده بقدسية الكلمة، وسحرها، وتعلم في حجره السموالرفعة، والتحليق، فارتقى الشعراء بأشعارهم وارتفعت مكانتهم في القبيلة، حتى صاروا بمنزلة الحكماء أوالأنبياء، إلا أن هذه العلاقة لم تكن دائما على هذه الشاكلة من التمازج والمؤالفة وقد مرت بنا أبيات سعد مثلا لعلها تعد إرهاصا من إرهاصات القطيعة الايستمولوجية مع الدين ؛التي ستقابلنا بتجلياتها الأولى في العصر العباسي، ثم ما ينجر عنها من تبعات في عصور لاحقة، وخاصة مع شعراء الحداثة.

وأخيرا من نتائج هذه المقاربة التي يمكن الإشارة إليها:

- أنّ ما وصلنا من أشعار يظهر وضوح اختراق االألفاظ الدّينية نسيج النص الشعري، وقد تنوع ذلك الاختراق وتعدد بتعدّد الشعراء وصلاتهم بتلك الممارسات، وكذا تعدد الديانات وانتشارها، من وثنية، نصرانية ويهودية،وحنيفية في شبه الجزيرة العربية.
- إن كانت الملفوظات الدّينية قد ما زجت النصوص الشعرية بعدد المعتقدات والممارسات المنتشرة ، فإن ذلك التمازج لم يتعدّ التعبير عن بعض قيمها وتعاليمها.
- إذا كان الشاعر القديم قد حافظ على مسافة بينه وبين تلك الممارسات والطقوس في مجتمعه فلم يعارضها أويحاذيها كما لم يفرد لها قصائد

مستقلة.فإن بعض الأعراب ثاروا على أصنامهم،وهي ثورة لا عقدية بل لمصالح مادية إلا ماندر.

- من الملاحظ أيضا أن الإسلام لم يقم بطمس كل ما له علاقة بالوثنية، مثلما شاع عند كثير من الباحثين بل إن آثار هذه الديانة بارز في الممارسات الشعرية التي بقيت محفوظة إلى اليوم، في مصادر اللغة، والأدب ،والتاريخ، وكتب التفسير.
- ما يمكن ملاحظته أيضا أن ذلك الشعر قد تضمن إرهاصات ،ومقدمات دينية استشرفت مجئ الإسلام، خاصة منها النصوص الشعرية للشعراء الحنفاء.

الهوامش

١ ابن الكلبي (أبوالمنذر هشام بن محمد السّائب): كتاب الأصنام ،تح أحمد زكي باشا تح أحمد زكي باشا الدّار القومية القاهرة ١٩٦٥م ص٧.

٢ على البطل: الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري دراسة في أصولها وتطورها. دار الأندلس د. ت ص ٥١.

٣ ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، دار الجبل بيروت ،ج ١ ص ٢٠٠

٤ ابن قتية: الشعر والشعراء تحقيق أحمد شاكر دار الحديث القاهرة ج ١ ص ٢٩٨

٥ الرّازي أبوحاتم احمد بن حمدان: الزينة في الكلمات العربية والإسلامية تحقيق حسن الهاني وحسن فيض الله الهمذاني مطبعة عيس الباي الحلبي مصر ط٢ ،١٩٦٩ج٢ ص ٨٣

٦ ابن رشيق القيرواني ، العمدة ج١ ص ١٢

٧ ابن سلام(محمّد بن سلاّم بن عبيد الله الجمحي):طبقات فحول الشّعراء ،دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط ،٢٠٠١م ج١ ص ٢٤

٨ ابن الكلبي : كتاب الأصنام ص١٠

٩ م ن ص١٤وص٢٩

١٠ هناك فرق بين الصنم والوثن: فالصنم يكون غالبا تمثالا.أما الوثن فيكون من حجر أوخشب (ينظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي ص ٩٠

١١ ابن الكلبي: كتاب الأصنام ص٣٩

١٢ كامل فرحان: الشّعر والدّين ،فاعلية الرّمز الدّيني المقدّس في الشّعر العربي ،دار الحداثة لبنان بيروت ط٢ ، ٢٠٠٦.م ص ٣٤

١٣ م ن ص٣٨وكذا ينظر جواد علي:المرجع السابق ج ٦ ص ١١٥

١٤ ١٤ – ابن عبد ربه (أبوعمر أحمد بن محمد الأندلسي): العقد الفريد تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم البياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنّشر القاهرة ١٩٦٧م ص ٢٨١

١٥ ابن الكلبي:الأصنام ص ٣٣

١٦ المقدسي : البدء والتاريخ ج١/ص٦١

١٧ جواد علي : المرجع السّابق ج١ ص ١١٤.

١٨ المقدسي:البدء والتاريخ ج١/ص٦١

١٩نايف معروف: الأدب الإسلامي في عهد النبوّة وخلافة الرّاشدين ،دار النّفائس ط١ ، ١٩٩٥ م ص ٩٦

×وكان من عاداتهم تقديم قرابين يراق دمها على الصنم المعبود

٢٠ ابن الكلبي: كتاب الأصنام ص ٣٧.

٢١ م ن ص٢٢

٢٢ م ن ص٢٢

٢٣ م ن ص ٤١

٢٤ جواد علي:المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام ،ط٢ ،١٩٩٣م، ج٦ ص ١٠٩

٢٥ ابن الكلبي: كتاب الأصنام ص ٤٧

٢٦ المقدسي: البدء والتاريخ ج ١/ ١٥٠ .والعبادي:ديوان ص ٦٣

٢٧ نايف معروف: المرجع السابق ص ٩٩

٢٨ شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي القديم العصر الجاهلي دار المعارف مصر ط١١ ص١٠٠/١٠١

٢٩ الأصفهاني: الأغاني ،مطبعة دار الكتب ،ج٢ ص١١١

٣٠ شوقي ضيف: المرجع السابق ص ١٠٢

٣١ -نايف معروف: المرجع السابق ص١٠٠

٣٢ الأعشى:ديوان ص ١٧٠

٣٣ نقلا عن الأصفهاني: الأغاني ج٢ ص ١٠٩/ ١١٠

٣٤ كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي تر عبد الحليم النجار دار المعارف ط ٥ ، ج ١ ص ١٤٧

٣٥ م ن ج١ ص ١٢٧

٣٦ يقول ابن إسحاق: اجتمعت قريش يوما في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويطوفون به وكان ذلك عيدا لهم في كل سنة يوما، فخلص منهم أربعة نفر نجيا، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض، قالوا: أجل وهم ورقة بن نوفل.... وعبيد الله بن جحش.... وعثمان بن الحويرث... ويزيد بن عمروبن نفيل... فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله ما قومكم على شيء لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ، ما حجر نطيف به لا يسمع، ولا يبصر، ولا يضر، ولا ينفع. يا قوم التمسوا لأنفسكم دينا، فإنكم والله ما أنتم على شيء، فتفرقوا في البلدان يتلمسون الحنيفية دين إبراهيم فأما ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية، وأما زيد بن عمروبن نفيل، فوقف فلم يدخل في يهودية، ولا نصرانية، وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان... وقال أنا أعبد رب إبراهيم"
ينظر ابن إسحاق = السيرة النبوية ج ١ ص ٢٣٧

٣٧ نقلا عن الأصفهاني = الاغاني ج ٣ ص ١١٩

٣٨ م ن ج٣ ص١١٢

٣٩ م ن ج٣ ص١١٤

٤٠ نايف معروف= المرجع السّابق ص ١١٠

٤١ - نقلا عن الأصفهاني = الأغاني ج٣ ص١٢١

٤٢ م ن ج ١٥ ص ٣٧٢

٤٣ م ن ج٤ ص١٢٦

٤٤ نقلا بن سلام الجمحي : جمهرة ص ٢١

٤٥ م ن ص ٢٠

٤٦ الأنباري (أبوبكر محمّد بن القاسم): المعلّقات السّبع إعداد ومراجعة عبد العزيز محمد جمعة الكوّيت مؤسّسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشّعري ط١، ٢٠٠٣م ص٢

٤٧ شوقي ضيف:المرجع السّابق ص ن

٤٨ ينظر جواد علي:المرجع السّابق ص ٣٤

٤٩ م ن ص ٨٠)

٥٠ المقدسي: البدءوالتاريخ ص ١٧٥

٥١ نايف معروف: المرجع السابق ص ١١٩

٥٢ م ن ص ١٢١

٥٣ ينظر شوقي ضيف: المرجع السابق ص١٠٢.وينظر جواد على:المرجع السابق ج٦، ص٣٢٥